



شجعت المتغيرات الحاصلة في سورية نظام مصر على استعمال إعادة العلاقة الدبلوماسية علينا مع نظام الأسد في سورية، ويسعى إلى إخراج العملية بقالب ديمقراطي، عبر الإيحاء بحصولها نتيجة ضغط شعبي، ومطالبة نخب وازنة وشخصيات تمثيلية بإعادة هذه العلاقة. والمفارقة أن هذه الحملة جاءت تحت شعار "من القاهرة هنا دمشق"، فيما يبدو ردًّا جميلاً لدمشق التي أطلقت إذاعتها في أثناء العدوان الثلاثي على مصر ولحظة توقف إذاعة مصر عن البث شعار "من دمشق هنا القاهرة".

يطبق نظام السيسي المثل المصري "أكل وبلحقة"، حيث لا يكتفي بارتكاب إثم التقارب مع نظام لم يخف أنه ارتكب ما ارتكب من مجازر بحق السوريين، من أجل تحقيق هندسة اجتماعية عنصرية سماها "التجانس"، بل يسعى نظام السيسي إلى تلمسه وتجميله، فقد تزامنت دعاوى إرجاع العلاقات مع نظام الأسد مع حملة إعلامية منسقة ومقصودة لحرف الرأي العام المصري، وإعادة تشكيله عبر إعادة صياغة القضية السورية برمتها، بحيث يظهر نظام الأسد ضحية مؤامرة خارجية، وأن القضية في الأصل قضية إرهاب تتعرض له الدولة والجيش السوريان، وأن الأمور وصلت إلى خواتيمها، ويجب مساندة سورية والوقوف معها، وإصلاح الخطأ الذي ارتكبه حكومة الرئيس الرئيس محمد مرسي قطع العلاقات مع نظام الأسد.

لكن ثمة فرقاً بين الأحداث يصعب، إن لم يستحيل، تجسيره، ذلك أنه عندما قالت إذاعة دمشق "هنا القاهرة"، كانت دمشق لأهلها سورية يحكمها أبناؤها، وكانت القاهرة تتعرض للعدوان واضح عقاباً على سياساتها التحررية، سواء لجهة تحرير مواردها وفك ارتباطها بالكمبرادر الخارجي، أو من خلال دعمها حركات التحرر في محيطها العربي "ثورة الجزائر".

كان طبيعياً أن يقول دمشق "هنا القاهرة". في حينها، كانت مصر تقود العمل القومي العربي وتدافع عن العروبة، وكان رئيسها جمال عبد الناصر يصنع تياراً قومياً في مواجهة تيارات تقول إن مصر فرعونية، وأخرى تنادي بالتوجه متواضياً، باعتبار أن العلاقات التاريخية مع تركيا واليونان، وحتى إيطاليا وفرنسا، أعمق بكثير وأكثر نفعاً وفائدة من العلاقات مع الدائرة العربية المختلفة. في المحصلة، كان شعار "هنا القاهرة" ينطوي على فخر كبير لدمشق، واستثمار في رأي عام عربي

محضن مصر وزعامتها.

ثمة فرق بين أن يكون لمصر دور في مستقبل التطورات السورية وأن تعمل على تأهيل نظام مجرم. أما عن الدور فهو متاح بشكل أوتوماتيكي لحاجة اللاعبين الكبار في سورية، روسيا وأميركا، إلى دور عربي يظلل نشاطهما، ويشرعنه في عملية تشكيل سورية، وليس هناك أفضل من مصر للعب هذا الدور لأسباب كثيرة، أهمها وزن مصر العربي ومكانتها، وليس لأسباب وظروف آنية، تتعلق بحاكمها الحالي ونخبتها السياسية، وهذا الدور سيكون مطلوباً في بناءٍ عليه، يجب أن تختلف حسابات الدور المصري، وعلى الدبلوماسية المصرية التقاط الفرصة بهدف تعزيز دورها الإقليمي، بما يعكس على أنها بشكل فعلي، وليس كما تذهب تقديرات متجلة من أن دعم الأسد وبقاءه سيعزز من أمن النظام الحاكم في القاهرة، على اعتبار أنه نظام شبيه له يعتمد على العسكر، ويحارب الإسلاميين.

يجب أن تبتعد هذه الحسابات عن العاطفة، وما تنطوي عليه من مكاييدات لجماعة الإخوان المسلمين، وأن ترتكز على ما هو أبعد من ذلك، فبقاء نظام الأسد يعني استمرار حالة عدم الاستقرار في الإقليم بكامله، كما أنه سيعني تعزيزاً للوجود الإيراني. ومن يقول غير ذلك يكذب على نفسه، فالأسد أصبح رهيناً لإيران، ولا أميركا أو روسيا يعنيهما تفكك العلاقة بين الأسد وطهران، بقدر ما لها مصالح معينة، يركزان عليها من دون الاهتمام بأي اعتبارات أخرى.

على مصر أن تدرك أن اللعب في هذا الأمر خطير، فهي ستؤسس لدمار النظام الإقليمي العربي، ليس فقط عبر تدعيم الهيمنة الإيرانية على المشرق العربي، بل أيضاً عبر إعطاء الفرصة لنظام الأسد للعمل على تخريب النظام العربي من الداخل، فهذا النظام فكّ كل علاقاته مع العالم العربي، وما يهمه فقط هو الانتقام من العرب وإذلالهم. ويكتفي تحليل الخطابين السياسي والإعلامي لنظام الأسد لاكتشاف حجم الاحتقار الذي يكتنفه للعرب، بغض النظر عن البلد الذي ينتمون له.

لا المكاييدات ولا اللغة الإنسانية تصلح للتعامل مع قرار خطير بهذا الحجم، في حين أن المعطيات هي باتجاه آخر، ولا تجد من يلتقطها للبناء عليها، فلا جيش سوري عربي كما يدعون، بعد أن انشق السنة عنه واستنكف الدروز الخدمة فيه ودفع المسيحيون بدلاً نقدياً عن خدمة أولادهم فيه، وصارت كتائب الزينبيين والفاتميين وأبو العباس وحزب الله تشكل قوات النخبة فيه، ولا سورية (الأسد) دولة مؤسسات حقيقة، تستدعي بالفعل إعادة إنتاجها لإعادة إنتاج المؤسسة السورية، واستمرار ماكينة القتل والتهجير.

ليس لمصر، أو لأي دولة عربية أخرى، مصالح في سورية، أكثر من المصالحة مع الشعب السوري نفسه المستقر والمتصالح مع دولته. وهذا لن يحصل مع بشار الأسد الذي أخرج ثلاثة أرباع الشعب السوري من وطنيته، ويتوعد في حال استقرار الأمور لصالحه بالانتقام من السوريين فرداً فرداً.

بغض النظر عن اختلافنا مع نظام مصر، ثمة فرصة أمامه للعب دور مؤثر وفعال في الأزمة السورية، وستكون مكاسبه استراتيجية وبعيدة المدى، وذلك عبر الاصطفاف إلى جانب حقوق الشعب السوري الباقي، وليس نظام الأسد الراحل، ولو بعد سنة أو اثنين على أبعد تقدير.

إما إذا كانت نخب مصر تعتقد أن عليها ديناً يجب تسديده، فمن المعيب اختصار سورية ببشار الأسد، وشطب الشعب السوري من المعادلة، أما إذا أصررتם فالرجاء أن تغيروا الشعار إلى "من القاهرة إلى بشار الأسد قاتل الشعب السوري"، فالمناورة مكشوفة، ولا داعي لأن تطعمونا جوزاً فارغاً.

المصادر: